



إن السعادة لا تأتيك عنوة ولا استجداً ..

إنما هي منبع ثرٌ بالعطاء، وأريجٌ فواحٌ ينثرُ شذاه في الأفاق، وإشراقه توقُّد فتيلَ الروح وتصهرُ أشواقَ الأحلام، وتُعيد للذاكرة ريفَ الخاطرة فتتفتقُ قطراتٌ نديةٌ من مهجة الحياة، ترطبُ ندوبَ الجراح فتلائم بلا مشقةٍ ولا عناء ..

إن الإيمان حين تنشيه قلوبُ الأصفياء فُيزِّن جبينها بُغْرَة النصر، ويُقْلِدُ جيدَها المعالي فتَحَلُّ بالاعتزازِ والفرخ، وترتقي به مراتبَ المَجَدِ التَّلِيدِ ومهدَ الأتقياءِ مَزِيَّةً وتنالُ به سَجِيَّةَ أهل الكرامةِ والعزم، من عاشوا في الدُّنيا بزادٍ قليلٍ وهم في سعةِ ورَخاءٍ، وماتوا وهم الأغنياءُ السُّعداء، وما أجمل ما قاله الإمام الشافعي في مدح هؤلاء ممن زهدوا في الدُّنيا وصانوا دينهم من التَّبَطُّ في لُجَّةِ الفتن:

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطَّنَا *** تَرَكُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَا عَلِمُوا *** أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنًا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَأَتَخَذُوا ** صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفَنا

والسعادة.. لا تسكنُ قلوبًا جَوْفَاء:

قد تعَلَّقت بالآمالِ العريضة فتخَلَّت عن مُقوِّماتِ الإيمانِ والفضيلة، وساقَها الجحودُ والطُّغيانِ إلى الانحرافِ عن سُبُّلِ الخيرِ والهداية، وجذَبَتها أهواءُ الشَّهَوَاتِ والمَلَذَاتِ فشرَدَت في مَرَاطِعِ الْكُفْرِ والضَّلَالَةِ، وخارَمَها المَيْلُ إلى الدَّعَةِ والرَّاحَةِ فَأَفْسَدَ

سُلُوكَهَا، وَغَلَّ جَوَارِحَهَا بِأَغْلَالِ الْإِنْسِحَاقِ وَالْإِنْدِهَارِ فَشَلَّ تَفْكِيرَهَا عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، كَأَنَّ عَلَى أَبْصَارِهَا غُشاوةً كَتِلَكَ الَّتِي خَتَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُلُوبِ الظِّنَّينِ كَفَرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غُشاوةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ)

قد ابتلاها الله تعالى بالحرمان من نعمة الغبطة وكراهة أهل السعادة، وأرسّل على قلوبها سجاف الحزن الكثيف، فصارت أشتبه بمعتكف ضئج من البكاء على الأطلال مشحونة بالضجر، لا تمل من تجُّرّ غصص المارة عن كتاب، وضاقت عليها الدنيا فلم تسعها برحابتها وانبساطها، كما ضاقت أرواحها بأنفاسها العليلة لفظتها خارج شريانها الأعزل كدخان حطب يابس، وصدق الحق سبحانه حين قال في سورة طه: (فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْكُرُ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنِّكًا وَتَحْسُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّي لَمْ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

والسعادة.. في لذة الإيمان:

يُشَرِّقُ نُورُهَا الْوَهَاجُ فِي قُلُوبِ تَعْلَقَتْ بِاللهِ فَاطِمَائِنَتْ إِلَى رُكْنِهِ الَّذِي لَا يَنْهَى، وَسَكَنَتْ نِبَضَاتُهَا إِلَى وِسَادِ الرَّاحَةِ الرَّحِيبِ كَطَلْفٍ مُتَعَبٍ تَوَسَّدَ رَاحَةَ الْمَهْدِ، تَرْفُ بِشَكْوَاها فِيهِزُّهَا الْحَنِينُ إِلَى ُلُوجِ رَوْضِ السَّعَدِ، وَتَرْتَوِي مِنْ سِقَايَهِ الطَّيِّبِ الْعَذْبِ، وَتَسْتَهْلِكُ بَظَلِّ نَخْلِهِ وَتَلْقِطُ مَا تُثْمِرُهُ الرُّطَابُ مِنَ الْعِذْقِ، وَتَتَنَتَّشِي مِنْ لَذَّةِ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ قُطَارَةَ الشَّهَدِ، فِي لَقَاءِ فَرِيدِهِ لِهِ أَسْرَارٌ لَا يَسْبُرُ أَغْوَارِهَا إِلَّا الْعَارِفُونَ بِمَا تَحْتَوِيهِ خَزَائِنُ اللَّهِ مِنْ يَوْاقِيتِ الدُّرَرِ، وَلَا يَجْتَلِي أَنْوَارَهَا السَّاطِعَةَ إِلَّا ذَوَوا الْبَصَائِرِ الصَّاحِيَّةِ، وَالضَّمَائِرِ الْخَالِصَةِ، وَالْأَلْسُونِ الْذَّاكِرَةِ، وَالْجَوَارِحِ الْطَّاهِرَةِ، مِنْ رُزُقِ الْتَّنَعُّمِ بِالْطَّمَانِيَّةِ وَجَمَعُوا الشَّمْلَ بِأَسْبَابِ الْفَرَحِ الْوَارِفِ، لَمَّا تَطَهَّرُوا مِنَ الذُّنُوبِ وَتَحَلَّوْا مِنَ الْمَعَاصِي، وَزَهَدُوا فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا وَرَغَبُوا عَنْ مَلَذَاتِهَا بِالْكَفَافِ وَالرِّضاِ بِالْتَّصِيبِ الْمُفَرَّرِ، فَحِيزَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا، وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْيِهِ مُعَافِيًّا فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ فُوتُ يَوْمِهِ فَكَانَمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)..

والسعادة تسكن قلوبًا فَرَّتْ مِنْ لُجَّةِ الْأَدْنَاسِ وَصَدَّتْ عَنْ شَقْوَةِ الْفِتْنَ، فَعَادَ إِلَيْهَا الصَّفْوُ يَصْدَحُ بِخَفْقَانِ الْحُبِّ، يَنْفَضُّ عَنْ رَفُوفِ ذِكْرِيَّاتِهَا دُخَانَ الْوَجْعِ، وَيَخْمِدُ فِي صَدْرِهَا الْمُلْتَاعِ الْكَمَدِ وَالْقَهْرِ، فَيَهِتَفُ رُكْنُهَا الْخَامِلِ يَسْتَجْدِي وَصُلْلَ بِالْمَعْنَى الَّتِي تَحْرِكُ رَفِيفَ الرُّوحِ، وَتَبْعُثُ فِي خَلْجَاتِهَا أَكْرَمَ ذِكْرِي وَأَشْرَفَ عَهْدِهِ، وَأَنْبَلَ مَأْرَبَ، وَأَسْمَى قَصْدَهُ، فَيَلْتَحِفُ صُوْتُهَا الشَّاكِي قَلِيلًا مِنَ الصَّمَمِ وَالسُّكُونِ، لَتَرْسِلَ الْمَسَرَّاتُ بِسَمَاتِهَا مَجَلِّهَ فِي الزَّمِنِ الرَّاغِدِ..

والسعادة.. في الجدِّ والنشاط:

تَتَمَلَّهَا الْحَوَاسِ فِي هَذَا الْوَجُودِ الْفَسِيحِ فَتَقْبِلُ عَلَى الدُّنْيَا إِقْبَالَ الْمُجَدِّينِ، لَا يَصْرُفُهَا اللَّهُو وَلَا اللَّغُو، وَلَا فُضُولُ الْكَلَامِ عَنِ الْإِنْتَاجِ وَالْتَّحَصِيلِ، تَصُونُ مَكَارَمِ الْأَخْلَاقِ عَمَّا يُزَرِّيَّهَا وَيُشَيِّنُهَا، وَتَنَأَّى بِنَفْسِهَا عَنِ مَجَالِسِهِ مِنْ أَنْقَدَتْ قُلُوبَهُمْ بِالْدَّخْنِ وَالْدَّغْلِ، وَتَصُدُّ عَمَّنْ خَالَطَ عُقُولَهُمُ السَّفَهِ وَالْدَّجَلِ، وَتَحْفَظُ كَرَامَةَ أَهْلِ الْمَجَدِ وَالشَّرْفِ، وَتَصُونُ هِبَّةَ أَهْلِ الْوَقَارِ وَسُلْطَانِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَتَحْثُثُ الْخُطْيَ سَاعِيَّةً فِي الْأَرْضِ بِكَدِّ وَنَشَاطٍ عَلَى شَرِعَةِ أَهْلِ الرَّشَادِ وَالصَّالِحَةِ، خَالِيَّةَ الدِّهْنِ مِنْ كُلِّ وَجَلٍّ أَوْ عَطَلٍ، تَحْصُدُ سَنَابِلَ الزَّرْعِ، وَتَلْتَقِطُ الْحَبَّ وَالثَّمَرِ، وَتَصْنَعُ بِيَدِيَّهَا الرَّغِيفَ وَالْخُبْزَ، قَانِعَةً بِلُقِيمَاتِ تُقْيِمُ صُلْبَهَا، وَتَشْدُّ عَوْدَهَا، وَتَقْوِي سَاعِدَهَا، وَلَا يَهْنَأُ لَهَا عِيشٌ حَتَّى يَرْبُو النَّبَاتُ وَيَخْضُرُ، وَتَتَسَعُ الرِّبَاضُ وَتُزَهِّرُ، وَتَمْتَلِئُ السَّوَاقِي، وَالْجَدَاوِلُ، وَتَفِيضُ الْأَنْهَارُ بِالْمَاءِ الْعَذْبِ، لَا يَشْغُلُهَا عَنْ بَلَوغِ غَايَاتِهَا النَّبِيلَةِ طَمَعٌ زَائِلٌ وَلَا تَرْفُ زَائِدٌ، وَلَا يَصْرُفُهَا عَنِ التَّعَبِ فِيمَا لَا يُغْنِي وَإِنْ كُثُرَ، وَلَا يُحِبِّنُهَا التَّأَسُّفُ عَلَى فَوْتِ مَا لَمْ يُقْدَرُ، وَتَتَوَقُ هِمَتُهَا إِلَى مَا يَقْرِبُهَا مِنَ اللَّهِ وَيُغْنِيَهَا عَمَّا سَوَاهُ، فَتَأْتِيَهَا الدُّنْيَا رَاغِمَةً مُسْتَبِشَّةً،

مصداقاً لإرشاد النبي صلى الله عليه وسلم: (من كانت الآخرة همة جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأنته الدُّنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همة جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له) ..

فما أسعده تلك القلوب التي وجدت ظلها الوارف ورُكتها الآمن، يذكّرها بما هو أعظم من كل شيء، ويلهمها الخُشوع وتدبر آيات الله في ذاك الوجود الرَّحِب، يُحْجِبُ عن عينها النَّظر إلى الحياة ويكشف لها النَّظر للآخرة، فتلذ بنشوة الغبطة..

المسلم

المصادر: